تعليق وتذييل حول

مناوأة الخدر والنعاس
فى الأدب المصرى
للأستاذ زكى طليمات

أثار صديقاى الأستاذ الكبير توفيق الحكيم والدكتور بشر فارس مسألة الكساد الذى يعانيه النتاج الأدبى فى مصر . وهذه هى مسألة الساعة على ما أعتقد ، وهى شغل الخاطر منذ أن راعنا كساد سوق الأدب والأديب فى هذه السنوات الأخيرة ، وهى سنوات مليئة بالأحداث تغيرت معها بعض أوضاع المجتمع المصرى فى السياسة وفى نظام الحكم ، وهى سنوات تتصف بالنشاط والحركة ، وبمحاولة التخلص من جمود ران على الذهنية المصرية القومية منذ أمد بعيد ؛ وكان من أبين مظاهر هذا الجمود ركود الأدب وانكماش ملكات الابتكار والتوليد فيه بما يتفق وروح العصر ...

والذى أراه فى هذا الصدد ويعن لى أن أبديه فى هذا المقام هو أن من الحرج أن نرد أسباب هذا الكساد الذى يشمل عالم الأدب فى مصر إلى الأديب وحده ، وأن نتهم الكاتب المنشئ وحده بالخدر والنعاس ، لأن الواقع المشهود يخالف هذا . وآية ذلك أن المطابع تطلع علينا كل يوم بالمؤلفات أو التراجم فى صنوف الأدب والفن ، ولا أعلم أن النتاج الأدبى فى مصر بلغ من الكثرة مثل ما يلغه اليوم

فإذا كان هذا النتاج لا يقابل من الجمهور بالحماس الواجب ، فلأن الفتور مفروض على كل شىء يجرى فى مصر ، ولأن عدم الاكتراث صفة — ويا للأسف — من صفات الأكثرية الغالبة من الجمهور المصرى ولا سيما فيما له علاقة بالأدب والفن . ومرد ذلك — على ما أعتقد — إلى الطبع المصرى الذى لم يستكمل بعد عناصر يقظته ، ولم يستخلص له ذوقاً أدبيًا سريع الطابع متماسك الأطراف متقارب النزعات يشمله التناسق والتوازن

ومن ثم كان اضطراب المزاج فى استيعاب الأدب وصنوفه ، فإذا هو مزاج يميج بالبدوات ويخرج على شرعة الانسجام بميوله المتباينة ونزعاته الملتوية . وجمهور القراء فى مصر خاضع لهذا الاضطراب ، فمنهم من يعيش بميول القرون الوسطى أو بما قبلها ، ومنهم من يفزع من قراءة كل جديد فى الفكر والرأى ، ومنهم من هو ثائر على كل قديم ، ومنهم من لا يرتاح إلى القديم أو الجديد ولا يعرف ما يريد ! ! هذا والسواد الأعظم من هذا الجمهور فى صنوفه المتباينة التى ذكرت ، على ثقافة مرتجلة أو هزيلة لافتقارها إلى الغذاء السليم . هذا ولا أتحدث عن الأمية التى ما برحت متفشية بيننا ، ولا عن التعليم البسيط الذى لا يتجاوز مدى الكتابة والقراءة ، وهو حظ الأكثرية الغالبة من جمهور القراء ، أو المتأدبين ، إذا صح أن نطلق عليهم هذا الاسم باعتبار أنهم قراء أوفياء للمجلات الهزلية وروايات الجيب وما شاكلها

بعد هذا يصح أن نقول إن الأدب فى مصر لم يصبح بعد لدى أكثرية الجمهور غذاء لابد منه وحاجة لا غنى عنها ، وإنما هو لدى البعض زخرف وزينة ، ولدى البعض الآخر ضرب من ضروب التسلية التى لا يستطاب الإقبال عليها فى كل وقت

وما دام الأمر كذلك فقد قدر علينا أن نرى محنة الأدب قائمة بيننا تثير وجوهاً ولا تتغير ، تخف وطأتها بمقدار نصيبنا من انتشار التعليم ورفعة المستوى الثقافى العام . وملاك الأمر فى هذا راجع

وإذا أريدت لإغاثة المفتقرين إلى المدد والمعونة فهى لا تغيث المستحق ولا تتورع عن استغلال الأموال وتسميرها كما يشرها التجار وأصحاب الأقساط والسهوم

وإذا أريدت لإنجاز عمل من أعمال اللغة والأدب فهى لا تنجزه على الوجه المطلوب ولا فى الوقت المعقول

ويبقى بعد ذلك أنها تضير ولا تنفع بما توليه الصغار من أقدار الكبار ، وما تجنيه على أقدار الكبار من الفضاضة والإنكار

* * *

يفتح الله يا عشاق « المريء » وترابه ... فلا المريء أفضل من المجمع الفرنسى ولا من جمهرة القراء فى إنصاف الأدباء ، ولا ترابه أنضل من التراب ، عند أولى الألباب !

عباس محمود العقاد

إلى جهودنا وإلى شرعة التطور والارتقاء ، التى هى كلمة الزمان وإرادته .

وإذا كان الصديقان الكبيران توفيق وبشر لا يريان ما أذهب إليه أو يريانه بعين الواعية الباطنة ثم هما لا يجرؤان على الإفاضة فيه والتنبيه إليه التنبيه الواجب ، بل يمترنان له لحناً ويعبران به عبراً ، فذلك لأن الصديقين أديبان أصيلان مشبوبان ، أخذت هوية الأدب بشغاف قلبيهما ، فهما يحذران لمس العلة الكبرى التى يشكو الأدب منها فى مصر أكثر من أى شىء آخر ، وإذا هما لمساها بإيحاء خاطر يطلع عليهما من وراء الوعى ، فإنهما لا يطيقان التمعن فيها ، وسرعان ما يفزعان إلى أشياء أخرى يتعللان بها ويموهان بها على نفسيهما

كذلك كان شأنى إذ كنت أعمل فى المسرح المصرى راكباً رأسى شاحذاً عزمى ، لا همّ لى إلا أن أفرض فن التمثيل على الجمهور ، فقد كنت أعتقد أن أسباب كساد فن التمثيل ترجع إلى افتقار المسرح المصرى إلى الممثل القادر والمخرج الحاذق والمؤلف النابه

كنت أعتقد هذا وأرفع صوتى به وأعمل على تلافى هذه الأسباب . ولكن كان يقع لى أحياناً أن يهجس فى هاجس خفيت العون نافذه يهمس فى أعماق نفسى أن العلة الأولى والأخيرة فى كساد المسرح إنما هو الجمهور ...

ماذا كنت أعمل ؟

كنت أغالط نفسى ، وهذه المغالطة — على ما أظن — مظهر من مظاهر كبرياء الفنان ومن حبه الكبير لنفسه ولفنه !

هذا عن جمهور المسرح ، وموقفه من فن التمثيل كموقف جمهور القراء من الأدب . وجمهور القراء واحد من ثلاثة عناصر رئيسية يقوم عليها عالم الأدب فى كل زمان ومكان .

* * *

أما الكاتب المنشىء فموقفه من محنة الأدب فى جمهور قرائه أنه لا يجيد العمل على تخفيف هذه المحنة بما يتملكه من الوسائل .

إذا أحس الكاتب فى صدره بأنه يجيد الكتابة فى أسلوب طلى وبيان رائع ، وإن النفس يطول به إلى تسويد الصفحات التوالية

من رسائلي

فى حياتى الفنية جانب مجهول أردت ألا أعترف به ورأيت أن أقصيه وأن أسدل عليه الستار ، لأنه فى نظرى اليوم لا يتصل بأدبى ولا يجوز أن يدخل فى عداد عملى . ذلك هو عهد اشتغالى بكتابة القصص التمثيلى لفرقة « عكاشة » حوالى عام ١٩٢٣ . غير أن المصادفة شاءت أخيراً أن ألتقى بمن يذكرنى بهذا العهد ، ويعرض علىّ طرفاً مما كنا نعمل فى ذلك الحين . ذلك رواية اشترك معى فى قطعة موسيقية قام بتلحينها المرحوم كامل الخلعى . ثم انقطع عن الفن منذ ذلك الوقت وشغلته شئون الحياة . ثم اختلينا فجعل ينشد لى بعض أغانى رواياتنا القديمة وأنا فى ذهول ! شد ما تغيرت أنا وتغيرت نظرتى للفن مرات ومرات خلال تلك السنوات ! ولكنه هو باق كما كان على احترام تلك القواعد والمثل التى كانت هدفنا ومرمى أبصارنا فى الكتابة المسرحية . إنه فيما خيل إلىّ لم يقرأ شيئاً مما أكتب وأنشر اليوم . فهو لا يعترف بعملى الآن . وهو إذ يحادثنى فى شئون الفن لا يبدى اهتماماً ولا إعجاباً إلا بما كنت أصنع قبل خمسة عشر عاماً . أما اليوم فأنا فى نظره غير موجود . إنه يذكرنى بأشخاص رواياتنا الغابرة كمن يذكر بأناس من أهل الحسب والنسب والكرم والشهامة لن يجود بمثلهم الزمان . فهو يترحم عليهم ويقول: « مضى كل شىء ! ولن نرى مثيلهم أبداً على خشبة مسرح من مسارح اليوم ! » . هذا صحيح . وجعلت أتأمل قوله لحظة فخامرنى شك فى أمرى اليوم وقلت فى نفسى : « ألا يكون هو على حق ؟ وأكون أنا قد ضللت وانحرفت عن طريق الفن الحق ! إن فن المسرح فن مرجعه السليقة السليمة لا الثقافة الواسعة . إنه شىء والأدب شىء آخر . أترانى محتاجاً إلى خمسة عشر عاماً أخرى لأكر عائداً إلى ذلك النبع الذى بدأت منه ونأيت عنه ؟ » .

توفيق الحكيم

فقد نصب نفسه أديباً لا يشق له غبار ، ويتسى الأديب البطل الفوار — أو هو يتناسى — أن العبرة فى الإنتاج الصالح . ليست بالكمية ، وإنما بالجودة . وجودة الأدب أن يكون نابضاً بالحياة مما يشغل أذهان الناس ، ويدخل على قلوبهم ويحرك رواكدهم ، وينفخ فيهم نفساً من الحياة الدافقة التى ينطوى عليها .

وإذا صح هذا فإنه يصح أيضاً — وهو الأمر الذى ترق إليه الظنون — أن ننفى عن الأديب المصرى تهمة النماس والكسل ، لأنه يعمل ويعمل كثيراً بدليل ما يطالعنا به كل يوم من المؤلفات والتراجم فى مختلف نواحى الأدب ، وهذا جل ما أفدناه من أخذنا بأسباب تطورنا الأخير .

إلا إن هذا العمل الكبير يعوزه التوجيه الصائب والاستشعار الكامل بمهمة الأدب ، ولهذا فإنه ينصب فى غير غاية مقصودة اللهم إلا غاية الكتابة والتحبير فحسب .

وتوجيه الأدب أمر لا يتم بمجرد الطلب والتمنى . واستشعار مهمة الأديب قد لا تحول كاتباً عن طريق اختطه لنفسه ولا تخرجه عن أسلوبه المختار مالم تعاونها ظروف خاصة أينها نصيب المجتمع الذى يعيش فيه الأديب من يقظة الروح المعنوى ، وتفتح الذهنية العامة على الآفاق النائية ، وقدرة البصيرة على تمييز الأشياء المختلطة ثم اختيار ما تريده منها ؛ ثم قسط هذا المجتمع من صدق العاطفة ومن الصراحة ومن الإخلاص .

ولا أريد أن أحدد نصيب مجتمعنا وقسطه مما ذهبت إليه الآن . وحسبى أن أقول إن ما نراه من انحراف أدباء مصر — ما عدا القليل منهم — عن معالجة الأمور الهامة التى يخفق بها قلب مجتمعهم إنما مرجعه إلى أن أكثرية هؤلاء الأدباء ليسوا على حس مرهف تنطبع عليه كل التيارات التى تنبعث من واعية المجتمع ومن وراء واعيته ، وإن هذه الأكثرية تعيش بعين الماضى لا بعين الحاضر ، أو أنها لا تحيا إلا فى أجواء الكتب التى تطالعها ، أو أنها تعبث كلاهية مشغوفة بالآراء الواردة علينا من أوربا مع واردات الأزياء ، وأخبار نجوم السينما .

والأديب إذا لم يكن على هذا الحس المرهف لم يستطع أن يلتقط الهمسات التائهة التى ترتفع من وراء واعية مجتمعة ، هذه الهمسات التى هى رغبات مكبوتة ، وآمال مقنعة ملثومة لا تقوى الجماهير على المصارحة بها ، وتترك أمر الإبانة عنها وترديدها فى جلجلة الرعد القاصف إلى قلم الأديب .

أوجب واجبات الأديب نحو نفسه ونحو قومه ونحو فنه أن يستخرج هذه الهمسات من الغموض الذى يحيطها ، وأن يستلها من معاقلها ليحولها إلى صيحات صريحة تدوى فى الفضاء . فإذا لم يفعل ذلك فقد قضى على نتاجه بالعزلة عن الناس ، وقطع ما بينه وبين الينبوع الذى منه يخرج ما يثير اهتمام الناس ويهز الركود الذى يرين على الأدب . إذا لم يفعل ذلك قضى على نفسه أن يعيش على هامش الحياة ، فى حين أن الجمهور يعيش فى صميم الحياة ، كما يقضى على أدبه ألا يتجاوز أمس المرآة التى لا ينطبع عليها من آثار الأرض سوى أعالى الشجر ورءوس التلال

* * *

هذا هو حال الأدباء فى مصر وهذا هو موقفهم من محنة الأدب ، وإن كان من بينهم من سبقوا عصرهم وأدوا شيئاً من رسالة الأدب الحقة

أما حال الناقد ، وهو العنصر الثالث الذى يقوم عليه الأدب ، فلا أجد ما أصفه به أبلغ مما جاء فى مقال الدكتور بشر فارس : « فإنه فى غالب الأمر وأكثر الحال ينوه بصديق ، أو يقع فى عدو ، أو يهمل كتاباً جهلاً بفنه أو إنكاراً لنفاسته أو اتقاء لصاحبه أو تسامياً ، أما التسامى فيدل على ذهاب بعضهم بأنفسهم على كل أحد وذلك من باب الغرور ، وقصة الغرور معروفة ... »

وإذا كان هذا هو شأن الناقد أيضاً ، والناقد الحق هو يوقظ الكاتب النشىء ، ومذيع أعماله ، ومقيم الميزان الذى لا يحيف ولا يخطىء لنتاج الأقلام ، بل هو الحركة الدائبة التى تدفع البطىء وتهز الركود ؛ فليس عجيباً بعد ذلك أن يرين الخدر والنماس على الأدب فى مصر

فهل حان الوقت الذى تراجع فيه أعمالنا ، ونشرع الحساب على ضمائرنا لتطهر ونفيق ونستقبل ضوء صباح جديد بعد نوم ثقيل طال ؟

زكى طليمات